البراجماتية فلسفة المستقبل
عند "وليم جيمس"

كرستين عماد سامي داود

مدرس مساعد

ملخص:

ترسم البراجماتية للإنسانية صورة في خُطى المستقبل فيها يطوّع العالم لإرادة الإنسان. والحقيقة والواقع من صنعه. وبالتالي بات المستقبل أمام الإنسانية مفتوحًا يسمح لكل فرد أن يحقق ذاته. فالواقع تجربة إنسانية. وإذا كانت البراجماتية تتفق مع التجريبية الإنجليزية في الاهتمام بالواقع والاعتماد على الحس فإنها في المعرفة لا تبحث عن أصلها وإنما عن نتائجها العملية. إذ صارت البراجماتية فلسفة تنظر إلى الإنسان حسب عمله ونتائجه. وإذا كان ذلك كذلك فإن صدق الفكرة مرتبط بآثارها وليس هناك قيمة لأي أفكار أو معتقدات إلا حسب نفعها. بهذا المعيار للحقيقة ولقيمة الإنسان ولمعاني الأفكار تستطيع الإنسانية أن تتوحد وتحتل مكانتها في مستقبل العالم.

الكلمات المفتاحية:

- البراجماتية "تصورنا لموضوع ما هو تصورنا لما قد ينتج عن هذا الموضوع من آثار عملية لا أكثر".
- "الواحدية "المذهب الذي يرد الكون كله إلى روح واحد محض".
- "التعددية" تصور برجماتي للكون يعارض بذلك الواحدية والحتمية, ويزعم أن مستقبل العالم يحتمل إمكانيات عدة يتوقف تحقيقها على فعل الإنسانية التي تقرر مصيره".

Abstract:

Pragmatism paints humanity a picture in the footsteps of the future in which the world obeys the will of man. Truth and reality of his creation. Consequently, the future became open to humanity, allowing each individual to realize himself. Reality is a human experience. If pragmatism agrees with English empiricism in caring for reality and relying on sense, then in knowledge it does not search for its origin but for its practical effects. Pragmatism has become a philosophy that looks at man according to his work and his results. If this is the case, then the validity of the idea is related to its effects, and there is no value to any ideas or beliefs except according to their usefulness. With this standard of truth, the worth of the human being, and the meanings of the ideas, humanity can unite and take its place in the future of the world.

Key-Concepts:

•Pragmatism: "Our perception of an object is our perception of what practical effects that may result from this object, nothing more".

•Monism: "the doctrine that restores the entire universe to one pure soul".

•Pluralism: "A pragmatist conception of the universe opposes monism and determinism, and claims that the future of the world may have many possibilities, the realization of which depends on the act of humanity that decides its destiny".

البراجماتية فلسفة المستقبل
عند "وليم جيمس"

كرستين عماد سامي داود

مدرس مساعد

أولًا: إشكالية البحث:

يتناول البحث إشكالية العقلانية في فلسفة وليم جيمس, وإشكالية العقلانية المثارة في فلسفة جيمس في سياق العلاقة بين العقل, والحقيقة, والمطلق, والعالم.

والسؤال: ماذا تعنى الإشكالية؟ وماذا تعنى العقلانية؟

الإشكالية اصطلاحًا: صفة لما يبين فيها وجه الحق, ويمكن أن تكون صادقة إلا أنه لا يقطع بصدقها, والمعنى الدارج لها: صفة لما هو مشتبه ويقرر دون دليل كاف, ومن ثم يبقى موضع نظر. أي أن الإشكالية فحواها أن ثمة قضية يقال عنها إنها صادقة ومع ذلك فإنها يمكن أن تكون موضع شك, أي أن تكون كاذبة. ومعني ذلك أن الإشكالية تنطوي على تناقض. بينما العقلانية هي موقف وللعقل فيه الأسبقية على طرق المعرفة الأخرى, وطريق العقل في المعرفة طريق واضح يتعارض مع التجريبية القائمة على فكرة إن الاحساسات لها الأولوية.

ولا تشير العقلانية إلى موقف فلسفي واحد, فهناك طرق كثيرة يستطيع العقل فيها أن تكون له الأسبقية, رغم ان تصور العقل غير واضح, انه غالبًا يشير إلى الحدس والخيال والذاكرة وهي أسس المعرفة القبلية. ولذلك تعتمد العقلانية على المعرفة النظرية, فهي طريق أفلاطون إلى عالم المثل, ومنفذ ديكارت واسبينوزا إلى الحدس العقلي, وحقائق ليبنتز المحددة قبليًا بمبادئ العقل القبلية. ويبقى تميز العقل على الحواس هو القاسم المشترك بين أهل العقلانية.

ففي الوقت الذي كان العقليون يتناولون قضايا المعرفة والكون في إطار معرفتهم بالعقل والمطلق, والمبادئ الجوهرية الأساسية كان جيمس ينقد العقل كمصدر لليقين والوصول إلى الحقيقة المطلقة, ويقاس صدق أي نظرية بنتائجها. فلا قيمة لفكرة إلا وفقًا لنتائجها العملية, ومن ثم تكون النتائج العملية هي المحك النهائي للحقيقة. بيد أن النتائج متباينة بتباين مستويات تطور الواقع وليس هناك ما هو محدد منذ الأزل أو صادق بالضرورة. وهذا على الضد من القول بأن الحقيقة واحدة. ومن هنا يقول جيمس إن الحقيقة متعددة.

أما التجريبيون فيعتبرون أن التجربة هي مصدر المعرفة الوحيد. وكان موقف جيمس مغايرًا إذ هو يكشف عن تناقضات العقليين وقصور وجهة نظر التجريبيين, ولكنه لم يهمل دور العقل أو يتغافل عن الواقع في معرفة الحقائق. بل جعل معرفة الحقائق تقوم على علاقة العقل بالواقع, بيد أنه لم يجعل العقل بذاته قادرًا على اثبات صحة أفكاره. ولذلك لجأ جيمس إلى التحقق العملي للأفكار معيارًا لصحة الفكر ووضوحه.

وإلى جانب إشكالية العقل والحقيقة تناول جيمس في تحليله لفلسفة ديكارت وغيره من العقلانيين إشكالية العالم في إطار الوحدة والكثرة. أما إشكالية المطلق فتكمن في أن النظرة العقلية للواقع هي النظرة الوحيدة التي تفسر الخبرات وترابطها في نسق واحد, كما أنها تكمن في التعددية التي يتصف بها العالم, إذ الوقائع والعلاقات لها وجود حقيقي, ومتجاورة, والاتصال ليس في حاجة إلى رباط خارجي يربط بينها.

ثانيًا: أهمية موضوع البحث:

تتمثل أهمية موضوع البحث في النظر إلى السياق التاريخي لأمريكا أثناء الحرب الأهلية وما ترتب عليها من صراعات المذاهب الفكرية, فمنها من اتخذ العقل سبيلًا إلى التطور والرقي, ومنها من اتخذ الخبرة على أنها السبيل الآخر للتطور والرقي. بينما كان جيمس ينادي بفكر آخر عملي يبني به المجتمع ويأخذ بالنتائج النافعة

من أجل التقدم, مما اضطره إلى البحث في هذه المذاهب ونقدها, ليخلص من نقده إلى أن كل فكرة صحيحة هي التي تعمل على تغيير الواقع ليكون متقدمًا على الحاضر ومتجهًا نحو المستقبل. **وبناءً على ذلك, يتساءل جيمس: كيف نبني المستقبل؟**

ثالثًا: تساؤلات البحث:

يقوم البحث على هذه التساؤلات الآتية:-

- ما البراجماتية؟
- هل العقل أو الواقع هو مصدر الحقيقة أم أن المصدر يجمع بين العقل والواقع؟
- هل يقينية الفكرة أو صحتها تؤكد على أن الأساس هو العقل أم الواقع؟
- ما المقصود بالمنهج البراجماتي عند جيمس؟ وما هو موقفه من مناهج التفلسف عند المثاليين والتجريبيين؟ ولماذا أطلق عليه هذا المصطلح؟
- ماذا عسى أن تكون ماهية الحقيقة؟
- ما علاقة البراجماتية بالمستقبل؟

رابعًا: الدراسات السابقة:

يمكن القول بإن الأبحاث الخاصة برسائل الماجستير والدكتوراه لم تتناول إشكالية العقلانية عند وليم جيمس بوجه خاص، وقد يعود هذا الأمر إلى صعوبة استيعاب نظرية المعرفة عند هذا الفيلسوف, ولكن على الرغم من هذا فهناك بعض الأبحاث التي تعرضت لمسائل أخرى في فلسفة وليم جيمس, وبالأخص, في الاهتمام بالنظرية البراجماتية الأخلاقية والدينية, أذكر من بينها:

- فتحي محمد عبد القادر هبى, أخلاقيات الفلسفة البراجماتية وجذورها اليونانية, رسالة دكتوراه, جامعة المنصورة, كلية الآداب, ٢٠١٥.

- منى أسود عبد حسن, نظرية المعرفة في الفلسفة البراجماتية: نماذج منتخبة بيرس, وليم جيمس, جون ديوي, رسالة ماجستير, جامعة المنصورة, كلية الآداب, ٢٠١٤.
- نادر عبد اللطيف عبد الدايم الطنوبى, البعد الوجودي في فلسفة وليم جيمس, رسالة ماجستير, جامعة طنطا, كلية الآداب, ٢٠٠٤.
- محمد محمد حسين الشامي, الحقيقة في فكر وليم جيمس, رسالة دكتوراه, جامعة الزقازيق- فرع بنها, كية الآداب, ٢٠٠٢.
- نجوى عبد الستار عبد الحميد محمد, وليم جيمس والميتافيزيقا, رسالة ماجستير, جامعة الزقازيق, كلية الآداب, ١٩٩٤.
- سامية محمد كمال علام, المدخل السياسي" لنظرية الصدق عند وليم جيمس", رسالة دكتوراه, جامعة الاسكندرية, كلية الآداب, ١٩٩٤.
- محمد عبد الحفيظ محمد الأحول, النزعة الانسانية عند وليم جيمس وجون ديوي, رسالة دكتوراه, جامعة الزقازيق- فرع بنها, كلية الآداب, ١٩٩٢.
- محمد عبد الحفيظ محمد الأحول, فلسفة الدين عند وليم جيمس, رسالة ماجستير, جامعة الزقازيق, كلية الآداب, ١٩٨٩.
- السيدة جابر محمد خلاف, مشكلة الحرية الإنسانية: دراسة نقدية مقارنة لنظرية جون ستيورات مل ونظرية وليم جيمس, رسالة ماجستير, جامعة الاسكندرية, كلية الآداب, ١٩٨٢.

خامسًا: المقدمة

انشغل جيمس بإشكالية مستقبل العالم مما أفضى به إلى مناقشتها براجماتيًا في مقالة عُنوانها "الواحد والمتعدد" من كتابه "البراجماتية", وأيضًا باستفاضة في كتابه المُعنون بـ"عالم متكثر"عام (١٩٠٩). وتتلخص الإشكالية في وجود الرؤية

الثنائية: إحداهما تصُور الاتجاه العقلي الذي ينظر إلى الواقع نظرة عقلية أحادية في تأويله, وتستعين بفرض المطلق ليؤلف بين الأشياء في العالم. بينما تكمن الرؤية الثانية في التصور التجريبي والذي يرى أن العالم متكثر, ولا رابط بين وقائعه. ومن ثم كانت الرؤية الأولى جوهرها القبلية وسيادة العقل على التجربة. ومن سماتها التركيز على أن معرفة الواقع لا تتم إلا بتجاوزه كواقع وبالنظر إليه من منظور عقلاني يتميز بالدقة واليقين, وبالتالي بصدق قضاياه. أما الرؤية الثانية فتدور على عدم مجاوزة الواقع, ودوران العقل حوله وليس العكس.

ومن هنا يكون لدينا فريقان: العقلانيون الذين يتناولون قضايا المعرفة والكون في إطار قدرة العقل على الوصول إلى الحقيقة المطلقة. والفريق الآخر هم التجريبيون الذين يعتبرون التجربة المصدر الوحيد للمعرفة, وبالتالي فانهم يقولون إن الحقيقة متعددة. وهنا أتساءل: أي من هذين التصورين يدفع إلى المستقبل عند جيمس؟ الجواب لا هذا ولا ذاك, وإنما البراجماتية وفلسفة العمل فحسب. والسؤال الآن: كيف استعان جيمس بالبراجماتية للتعامل مع هذه الإشكالية؟ للجواب عن هذا السؤال يلزم أولًا فهم معنى البراجماتية .

<u>سادسًا: الإطار النظري</u>

البراجماتية لفظ قديم معناه العمل أو الممارسة. وكان تشارلز بيرس (١٨٣٩-١٩١٤) أول من أدخل اللفظ في الفلسفة عام ١٨٧٨م حيث يذكر في مقالة له بعنوان "كيف نوضح أفكارنا؟" في إحدى المجلات في شهر يناير من ذلك العام أن معتقداتنا في حقيقة الأمر هي قواعد للعمل, وأننا لكي نطوّر معنى فكرة ما كل ما نحتاج إليه هو تحديد السلوك المناسب الذي تنتجه فحسب. والسلوك هو الأهمية الوحيدة لها, وإن الحقيقة الملموسة هي الجذر الأصلي لأفكارنا. وأنه لا توجد فكرة واحدة منها إلا وتكون اختلافًا ممكنًا في العمل والممارسة. ولكي نصل إلى الوضوح التام في أفكارنا عن أي موضوع نحتاج إلى اعتبار الآثار العملية الممكن تصورها للشئ, وماهية الإحساسات التي يمكن

أن نتوقعها منه. فتصورنا لهذه الآثار سواء أكانت مباشرة أم بعيدة هو كل تصورنا للشئ, مادام لهذا التصور أهمية عملية. ذلك هو مبدأ بيرس, إنه مبدأ البراجماتية.[١] ووفقًا لهذا المبدأ البراجماتي لا يمكننا رفض أية فرضية صدرت عنها نتائج نافعة للحياة.[٢] إلا أن هذا المبدأ ظل مهملًا لم يلحظه أحد حوالي عشرين عامًا حتى بعثه جيمس من مرقده مرة ثانية إلى الوجود حين ألقى محاضرة أمام رابطة البروفسور هوويسون الفلسفية بجامعة كاليفورنيا ونوه فيها بضرورة استخدام مصطلح البراجماتية في مجال الدين. ومن ثم انتشر المصطلح في المجلات الفلسفية.[٣]

وبناءً عليه جعل جيمس من "نظرية بيرس في المعنى" أساسًا لفلسفته العملية كلها, وذلك في كتابه الرئيسي المُعنون "بالبراجماتية" حيث اعتبر أن معرفة الفارق العملي الذي يترتب على صدق المعنى هو الأساس الذي بمقتضاه نميز صدق الأفكار وصحة المعاني. وبهذا المعنى يكون معيار الحقيقة عمليًا. وأن تفسر المعرفة على أنها رد الفعل الذي يقوم به العقل لمواجهة مطالب الحياة العملية. فليس معيار الحقيقة مطابقة الواقع. بل قيمة الفكرة وما يترتب عليها من نتائج عملية ليصير معنى الفكرة هو ذلك المعنى العملي.[٤]

والمعنى العملي للفكرة مرهون بالصدق المستقبلي لها. فشريطة معيار صدق الفكرة هو النتائج التي تتحقق في الواقع الملموس. فلم تعد الفكرة صادقة في ذاتها, بل أصبحت حقيقتها مرهونة بما يتحقق من منفعة عملية في حياة الفرد. ذلك هو جوهر التجديد الذي أدخله جيمس على نظرية المعرفة في الفلسفة. إنه الربط بين الأفكار بالنتائج التي تحققها تلك الأفكار في حياة من يؤمن بها. فالنتائج الناجحة المفيدة التي تتحقق على أرض الواقع تعني أن هذه الفكرة أو تلك فكرة صادقة, وما عدا ذلك من أفكار ينبغي العدول عنها.[٥]

وقد ارتأى جيمس أن التجربة لا تكشف لنا عن أن أفكارنا نسخة دقيقة لموضوعاتها ولا أي شيء من هذا القبيل لأن العالم ليس وحدة متماسكة, بل هو مجموعة

من الأشياء التي تتطور وتتغير في صيرورة مستمرة وزمان متجدد. وإذا كان الرأي التقليدي للعقلانيين قائمًا على فكرة الثبات, وعلى تعريف الحقيقة على أساس تطابقها مع شيء موجود من ذي قبل فإن جيمس لا يرى في الحقيقة نسخة مطابقة لما قد كان أو ما هو كائن. بل يرى أن الحقيقة, برجماتيًا, مرهونة بما سيكون, أو على الأدق تعد فعلنا لما سوف يكون.[٦]

والحقيقة البراجماتية طريقة لحسم القضايا العقلية التي بدونها ما كان لها أن تنتهي مثل هل العالم واحد أم متعدد؟ مسير أم مخير؟ مادي أم روحاني؟[٧], إذ إن لديها حلًا عمليًا حتى ينتهي النزاع القائم بين المذاهب الفلسفية حول هذه التساؤلات. وبالتالي يتعين علينا إثارة السؤال عن الفارق العملي في التجربة حولها؟ وغير ذلك يكون أي نزاع بشأنها هو نزاع عديم الجدوى.

انطلاقًا من هذا يصبح التوافق بين الفكرة والواقع, عند جيمس, مسألة قيادة موجهة مفيدة. فعندما تقودنا الأفكار الصحيحة إلى نتائج محسوسة نافعة,[٨] وتساعدنا على التعامل مع الواقع عمليًا, ولا تعرقل تقدمنا بإحباطات, وتكيّف حياتنا معه سوف توافق هذه الفكرة مطالبنا بشكل كافٍ وتكون صادقة مع ذلك الواقع.[٩] هذا هو معنى كلمة "توافق" عند البرجماتي. إنه يتعامل معها عمليًا, ويسمح لها بأن تنقله من فكرة حاضرة إلى نهاية مستقبلية بشرط أن تركض بنجاح مزدهر,[١٠] وبالتالي تصبح الحقيقة متاحة لكل فرد.[١١] فالحقيقة تُصنع مثلما تُصنع الثروة والقوة في ميدان التجربة. إنها متصلة بالحياة ونسعى في طلبها.[١٢] كما إنها قوة, ونزوع, وفعل مرهون بالتجربة وثيقة الصلة بالتغير والزمان.[١٣]

وهنا المفارقة واضحة بين كون المرء براجماتيًا وكونه عقلانيًا من حيث إن العقلاني لا يسمح بأن يكون في مقدور الواقع أو الحقيقة التغير. فالواقع, عنده, كامل وتام منذ الأزل. كما أن أفكارنا تتوافق معه وتلك القضية غير قابلة لتحليلها, وأن صحتها لا علاقة لها بخبراتنا التي هي في حالة تغير مستمر, ولا تضيف شيئًا لمضمون التجربة,

ولا تحدث فرقًا مع الواقع ذاته. إنها مجرد انعكاس ساكن فحسب, وليس موجودًا. كما إنها تنتمي إلى بُعد آخر يختلف عن بُعد الوقائع أو علاقات الواقع هو "البعد الابستمولوجي". وبهذه العبارة يغلق المذهب العقلي باب الحوار.(١٤)

هكذا توجه براجماتية جيمس أنظارنا نحو المستقبل. في حين أن العقلانية تعود بنا إلى المبادئ والحقائق المجردة الثابتة. إذ تعود إلى المبادئ, والحقائق المجردة, وتعتقد أنها تمتلك حلولًا آتية من السماء.(١٥) ومادامت الحقائق إنسانية ومنبثقة من الواقع والتجربة فإن ما نكتسبه من حقائق في حالة تغير وانتقال مستمر نحو هدف محدد.(١٦) ويترتب على ذلك أن قبول الحقيقة التي في مقدورنا الحصول عليها اليوم من المحتمل أن تتغير ونسميها كذبًا في الغد.(١٧) ووفقًا لذلك سوف تتغير نظرة الإنسان إلى الحياة, ويتضح منهج تفكيره وسلوكه في الواقع نحو المشكلات التي تقابله.

تأسيسًا على ذلك فإن براجماتية جيمس هي فلسفة تعددية تقابل الفلسفات الكلاسيكية أحادية الجانب. وفيها البرجماتي يدير ظهره بقوة للعادات الراسخة. إنه يبتعد عن التجريد, وعن الحلول الكلامية, والعلل القبلية, والمبادئ الثابتة, وعن الأنسقة المغلقة, والثوابت المطلقة ليتجه نحو ما هو محسوس وواقعي وعملي من الحقائق.(١٨) بالإضافة إلى ذلك فإن البراجماتية تعتمد على الظواهر المستقبلية لا السابقة في العمل. لذلك تمثل الفلسفة البراجماتية السبيل إلى طريقة التفكير الوسطية التي نرغبها,(١٩) والهواء الطلق وإمكانات الطبيعة مقابل الدوجما واليقين المطلق وادعاء الحقيقة النهائية. إنها مجرد منهجية(٢٠) لمزيد من العمل حتى يمكن تغيير الواقع الراهن بالإرادة الحرة.(٢١)

إذن الإرادة الحرة هي حكم الحقيقة. والحقيقة هي المنفعة, والمنفعة هي الحقيقة عند جيمس. ويلزم من تعدد الحقيقة إنكار المطلق.(٢٢) والسؤال الآن: هل ينكر جيمس المطلق؟

قبل الجواب عن هذا السؤال يرجو منا جيمس وجوب عدم الخلط بين مفهوم المطلق والإله. إذ إنه يفرق بينهما. ويعبر عن المطلق بأنه مفهوم عقلاني. والعقلانية تنتقل من الكل إلى الجزء مفترضة أن الكل مكتفيًا بذاته.(٢٣) أما الإلهي, وفقًا لتعددية

جيمس, فانه مجاوز لنا وهو مطلب الإيمان في الخبرة الدينية. (٢٤) وهو إله الناس والأديان بصفة عامة, أي الإله الخالق في اللاهوت. وهذا الإله وجوده مستقل عن وجودنا. إذ إنه ونحن كائنين منفصلين عن بعض. ويختلف وجوده عن وجود المطلق اللازم للمذهب الواحدي والأخذ بالاعتقاد في وحدة الوجود. وارتأى أننا إذا برهنا على عدم وجود المطلق فإنه لا يلزم عنه عدم وجود إله الأديان. ويقر صراحة بقوله:" إنني أؤمن بوجود الله, وأرى أن المطلق عدو له, فهو قوة فرضت علينا بالعقل ولكنه افتراض غير محتمل".(٢٥)

ومن ثم اعتبرت براجماتية جيمس المعتقد الديني أنه مسألة إيمانية تخص الإنسان وحده. فهو فقط الذي يقرر ذلك.(٢٦) ونحن لا نعرف يقينًا أي نوع من الدين سيعمل على نحو أفضل في المستقبل البعيد حتى الآن حيث إن معتقدات الناس مختلفة ومتعددة في الواقع.(٢٧) وهكذا, يرى جيمس أن الإنسان هو مَنْ يقرر فرض الاعتقاد, وأنه من الحكمة والشجاعة أن تكون دلائل الاعتقاد كامنة في النتائج العملية النافعة التي تترتب عليه وليس في أصله. وإذا لم يحقق هذا فله حرية عدم الاعتقاد به, ويكون فعله صحيحًا, إذ إنه سيموت بلا شك وله أن يؤمن ليخلص نفسه. ومن ثم فهو فقط من يجعل أحد الاختيارين حقيقة ممكنة بثقته أو بعدم ثقته. وكل من البديلين يتسم باحتمالية التحقق قبل أن يقوم بفعله.(٢٨)

وعلى أية حال فالإنسان إن أراد الفعل فإنه يسلك على مسئوليته. ولا أحد منا له حق البتّ في هذه المسألة غيره. ولا يجب قذف الكلمات المسيئة بين بعضنا البعض. لكن على العكس فانه من اللازم أن نحترم حرية الآخر في التفكير والاعتقاد. وفي هذه اللحظة نؤسس دولة عقلانية توجد فيها روح التسامح الداخلي والذي بدونه يفقد التسامح الخارجي روحه. عندئذ فقط يمكننا أن نعيش وندع الآخرين يعيشون في روح من الحرية العقلية والعملية.(٢٩) وإذا كان ذلك كذلك فان السؤال: ماذا عسى أن يكون المستقبل؟

تعتقد العقلانية, منطقيًا, إن وحدة المبدأ المطلق هي أساس لإمكان وجود الوقائع

المتعددة. وارتأت المطلق أنه بمثابة الوعاء الذي يضم الممكنات والضامن لها. وعليه إذا أخذنا بهذه الطريقة فإن العالم كله يكون واحدًا وموجودًا في الأزلي. (٣٠) وهذه هي الفلسفة الواحدية* أو القائلون بالمطلق. وهي فلسفة مثالية ترى العالم على أنه حقيقة واحدة كلية وكاملة, ولا يوجد خارجه شيء. والعالم الكلي, في نظرها, ليس سوى عقل مطلق. والعقل المطلق, هو صانع الوقائع الجزئية بالتفكير فيها, ووجودها موضوعًا له.(٣١) وهكذا ينهج العقلانيون في فهم العالم منهجًا واحدًا وهو وجوب وجود الكل القبلي أي المطلق. والمطلق هو حقيقة, وضرورة منطقية, وإنكار وجوده غير معقول.(٣٢) وبناءً عليه تساءل جيمس: ما معنى أن يكون العالم واحدًا أو متكثرًا؟ (٣٣) وهل إطلاق الواحد على الكثرة يجعلنا نفهم العالم وعمليات تأثيره بصورة أفضل وحقيقية في المستقبل؟(٣٤)

زعم جيمس أننا إذا نظرنا إلى حقيقة العالم بأنها حقيقة ساكنة وبدون تاريخ فإنها تجعلنا ننظر إليه بأنه مستقل عنا. ويصبح الاعتقاد بالعالم المطلق بدلًا من الاقرار بالعالم المتناهي والمتغير أمرًا مشروعًا.(٣٥) ومن ثم يستنكر تصور العقلانية على وجود المطلق باعتباره أساس تصور العالم أو طريق الوصول إلى الحقيقة. إذ هي مردودة, عند جيمس, إلى الإحساس وليس إلى التصور العقلي الذي اعتبروه مصدر تكوين الصورة الكلية الثابتة للعالم بالرغم من أن الخبرة الحسية أساس تصويرهم له ومتضمن في معنى التصور. وعليه زعم جيمس بأن هذه الفلسفة غير مقبولة. مؤكدًا ذلك بقوله:" إن اعتقادي الخاص بافتراض إن العالم متعدد, وناقص, وقابل للوصف, ونسبي هو افتراض مشروع".(٣٦) وبما إن الواحدية تؤسس رؤيتها عن العالم على منطق العقل المجرد غير القابل للنقد فإن فرض التعددية يظهر, بالنسبة لها, سخفًا.(٣٧) والسؤال إذن: ما التعددية؟

يقصد جيمس بالتعددية* فلسفة التجريبية الراديكالية Radical Empiricism.(٣٨) وتعني "التعددية" برجماتيًا, عنده, أن الأجزاء المنفصلة في الواقع يمكن لها أن تتصل من الخارج بعضها ببعض. فضلًا عن أن كل شئ نتأمل فيه مهما يكن يكون له واقع حقيقي خارجي. أي توجد الأشياء جميعًا متصلة مع بعضها لبعض وتتعدد وليس ثمة

شيء يقوم بشملها داخله. ويشبه, جيمس, التعدد في العالم بأنه أشبه بجمهورية متحدة أكثر منه امبراطورية(٣٩) فيها يفقد العالم وحدته بالقياس إلى كونه مؤلفًا من الأشياء المتكثرة التي تؤثر بعضها في بعض. والعلاقات الموجودة بين الأشياء لا حصر لها. وهذه الصورة المؤلفة من هذه العلاقات تُشكَل نظام العالم وتلتحم به من خلال توحد الجهود البشرية كل يوم باستمرار في العالم بطرق منتظمة محددة وتشكيل العوالم المختلفة. وبالفعل فإن النظم المختلفة تتكاثر وتتعاون أجزاؤها مع بعضها البعض وتُشكَل عوالم أخرى . والنتيجة وجود عدد كثير من الترابطات الأوسع في نطاق العالم الأكبر. وكل نظام يمثل نوعًا من الوحدة تتصل أجزاؤه وفقًا لعلاقة معينة بينها. وربما يكون لأحد أجزائه علاقة أخرى بنظم كثيرة. وبناءً على هذه النظامية, من وجهة نظر جيمس, تكمن القيمة البراحماتية لوحدة العالم وهي أن جميع هذه العلاقات المحددة والمُعينة موجودة بالفعل ومرهونة عمليًا بالواقع,(٤٠) أي التوافق مع الواقع والتوجه إليه بأفكارنا, وممارسة العمل فيه, والتعامل معه ومع الأشياء بصورة أفضل عمليًا.

والعمل ، منظورًا إليه من زاوية النفع والضرر, لا يمكن أن يصلح مقياسًا موضوعيًا. اذن هو مقياس ذاتي. والذاتية تعني أن الخبرات متباينة. والتباين، لا يمكن أن يرقى إلى مستوى الوحدة، لأن ادراك الوحدة يستلزم أن يكون المقياس موضوعيًا. اذن يظل التباين عند مستوى "الكثرة ". ولهذا يبدو العالم، عند البرجماتى، وكأنه "تعددي" pluralistic. ويلزم من الكثرة إنكار المطلق.(٤١) ومن ثم دعا جيمس إلى عدم وجود وحدة مجردة, وإنما هناك أشياء واقعية حقيقية.(٤٢) واعتبر أن الطريقة الوحيدة لمعالجة الاعتقاد بوحدة العالم أو تعدده والمضي قدمًا بفكرتنا هو مناقشة هذا الاعتقاد براجماتيًا. وهنا السؤال: ما هي القيمة العملية أو الاختلاف العملي الذي تحدثه الوحدة أو التعددية بالنسبة إلينا؟.(٤٣)

يترك جيمس مسألة وحدة أصل العالم بدون حسم.(٤٤) ويرى الوحدة, وفقًا للبراجماتية, هي مبدأ يخطو بنا قدمًا إلى ميدان الخبرة فحسب. ويكشف لنا أن أهم نوع لوحدة العالم, براجماتيًا, هو الوحدة التي تُدرك بين الأشياء, ويقصد بها "وحدة الهدف". ومفادها أن ثمة عددًا كبيرًا من الأشياء في العالم تفيدنا في إشباع أهداف مشتركة. وهي متمثلة في النظم التي تشكلها الإنسانية من أجل تحقيق أهداف معينة تخدم رغبات الأفراد ومنها النظم الإدارية والصناعية والحربية. إذ بتعاون أفرادها تنمو وتتطور هذه النظم وتقدم لهم فرصًا جديدة للتغيير وتجديد الأهداف.(٤٥)

وإذا كانت الوحدة, في تصور جيمس, هكذا فإن الذات الواعية المركزية, هي الذات الواقعية واللحظية لأن وظيفتها تتعلق بالأفعال الحاضرة. إنها الذات الفاعلة في الواقع, ويكون في قدرتها الاستعانة بالشعور والوعي به في صورة أوسع وتتخيل كأنها فوقنا إلا أنها هي بداخلنا. إنها ليست الذات التي تستعين بالتصورات والكلمات للتعبير عن الأشياء. بل تتجاوزها ولا يمكنها الرجوع إلى الواقع بهذه التصورات والأفكار المجردة. فالرجوع, لدى جيمس, هو فعل. والأفكار التي نستخدمها في الحوار وضعناها بهدف الفعل, وإنجاز العمل, والممارسة وليست بهدف التأمل والنظر فحسب. ومن ثم يطلب جيمس منا أن ننظر إلى وقائع العالم, وأن نشعر بها, ونتعاطف معها بشعورنا, وأن نفهم كنهها بذاتنا.(٤٦)

ويعلن جيمس بأن فلسفة برجسون كانت السبب الأساسي في نقده للطريقة العقلية ومفهوم المنطق الذي اعتبرته معيارًا كافيًا لتقرير ما هو ممكن أن يكون, وما هو غير ممكن.(٤٧). وفلسفة برجسون ذاتها لم تكن إلا احتجاجًا على كل كسل عقلي، ونفورًا من كل ما هو جامد، واندفاعًا نحو كل ما هو خصب متجدد، متجاوزًا في ذلك التصورات الجاهزة، والأفكار التامة المعدة من ذي قبل. وكل ذلك قوامه الجهد.(٤٨) ومن ثم يعّرف الوجود بأنه ديمومة، عنده, والديمومة زمان.(٤٩) ولما كانت الديمومة زمان، والزمان مرهون بالمستقبل. ولما كان المستقبل يعني التفتح والتحرر والانطلاق فمعنى ذلك أننا

في الديمومة بإزاء شيء جديد، أي شيء غير متوقع ولا يمكن التنبؤ به. ولذلك يقرر برجسون أن الديمومة تعني التطور.(٥٠) وبما إن الديمومة حقيقة, فإن كل شيء يدوم ويتغير من الداخل بحيث إن الواقع ذاته لا يتكرر أبدًا. وهذه الديمومة لا نعقلها بأذهاننا المجردة, وإنما نحياها في باطننا، لأن الحياة أوسع من العقل.(٥١)

وبالتالي يكون العالم أجمع, هو ديمومة أي اختراع وتجديد وخلق وتقدم متصل. والآن نستطيع أن نفهم حقيقة المعرفة الإنسانية: فمتى كانت الصيرورة عين الوجود وعين نسيج الأنا، كان الثبات ظاهريًا أو نسبيًا، ولم يعد هناك أشياء أو جواهر بل عاد الوجود أفعالًا وحسب.(٥٢) لذا يقال إن الإنسان بطبيعته صانع، وإنه قد قضي عليه أن يخرج عن ذاته كي يحقق فعله في العالم المادي، ويحاول التأثير على الأشياء.(٥٣) ومن ثم تكون ماهية الواقع كامنة في صيرورته وعدم ثباته, في الوقت الذي تكون فيه التصورات العقلية ثابتة. لذا تتناقض التصورات مع الواقع والحياة. ولكن يفترض جيمس أنه ربما تصير التصورات في حركة مع الواقع بعد ذلك بالرغم من أنها ليست جزءًا من الواقع ولا هي اللحظات الحقيقية للوجود, وإنما هي مجرد افتراضات نحاول من خلالها فهم الواقع. وعليه لا يمكن للتصورات أن تحمل الواقع. فإذا كنا في المعرفة العقلية نقوم بتحديد الأفكار واستبعاد الأشياء فإنه يختلف ذلك في العالم الحسي إذ نجد الخبرات تتداخل فيما بينها ومن الصعب معرفة ما نستبعده وما نبقى عليه. مثلاً نرى أن الماضي والمستقبل نقيضان للحاضر في الوقت الذي يكونا كلاهما حاضرين أثناء الخبرة في آن واحد. وحينها تكون لحظة الحاضر افتراض لفظي خالص وليس شيئًا واقعيًا. ففي اللحظة التي تتحقق فيها اللحظة الماضية نجدها تختلط مع اللحظة المستقبلية. أي في اللحظة التي تقول فيها "الآن" تصير "كان".(٥٤)

وفي هذا السياق يمكن القول إنه لا يوجد في الواقع أشياء قد تم صنعها منذ الأزل, وإنما توجد الأشياء قيد الصنع والبناء. ووفقًا لذلك ينهار الواقع حينما نحوله إلى أنساق صورية. إنه يتحرك بالضرورة بمجرد تطور الأشياء. وواجب العقل أن يسعى

لفهم حركة هذا الواقع بشكل مباشر وعدم جمع نتائج العلم الجاهزة.(٥٥) إذ إننا نرى أحداث الحياة تحدث أمامنا أولًا ثم نعقلها ثانيًا. وهذا معناه, أن رغباتنا العملية تأتي أولًا قبل اهتمامتنا النظرية. وأننا نحيا أولاً ثم نفهم بعد ذلك. نحيا للأمام ونفهم للخلف. بيد أن عملية افتراض فهم العالم عن طريق التصورات ومحاولة تنظير الواقع أو تجريده تبسيطًا له معناه موت العالم من حركة الأحداث وصيرورتها ووضع العالم في قالب جامد وكأن الحياة قد تحققت وانتهت.(٥٦) وعلى الرغم من أن جيمس ذهب إلى أن معظم إشارات العالم تؤكد على أنه ناقص ومرهون بالغائية. وأنه يتجه نحو الوحدة دون أن يتحد, وأن مَنْ يدعي وجود وحدة غائية مطلقة وأن ثمة مطلقًا يخدم كل أجزاء العالم فإنه دوجماطيقي مغامر وتقع عليه المسئولية وحده. إذ إن معرفتنا بالعالم وأجزائه هي معرفة حسية مرهونة بما يمكن أن نحققه من أهداف نريد تحقيقها.(٥٧)

وتبعًا لذلك يفترض جيمس: "إذا صانع العالم عرض علينا مسألة العالم, قبل الخلق, واقترح علينا بأنه سيصنع عالمًا ولكنه عالمًا غير مكتمل. وأن كماله مشروط. والشرط هو أن كل جزء من المتعدد يقوم بعمله الخاص على أفضل وجه. وأنه يعطينا منحة الاشتراك في صنع هذا العالم ويتطلب منا مغامرة حقيقية, ومواجهة مخاطرة حقيقية, وإنه مشروع إنساني يحتاج إنجازه مسئولية العمل التعاوني بصدق. هل سوف نفضل أن ننضم إلى هذا المشروع ونكون جزءًا ضروريًا في تكوين عالم تعددي ونستطيع مواجهة الصعوبات أم إننا نرفض هذا المشروع لأن نتيجته غير مضمونة؟.(٥٨)

فتصور جيمس أنه في اللحظة التي فيها نوافق على العرض ونرحب بالاقتراح فإننا سوف نشكل عالمًا يشابه العالم الذي نحيا فيه عمليًا, وسيكون العالم موافقًا للعقل بشكل مشروع". إلا أن جيمس كان على قناعة بأن ثمة فئة من العقول الدوجما سوف يرفضون الاشتراك في هذا المشروع الإنساني حيث إن عالمًا يمنح لهم فرصة المغامرة لن تستهوي عقولهم". (٥٩) أما مَنْ يشترك في ذلك المشروع فإنه يصير براجماتيًا أصيلًا. لأنه يرغب الحياة وفق مشروع وعدد من الإمكانات المحدودة وغير المضمونة ولديه

الاستعداد بالمغامرة وإذا لزم الأمر التضحية بنفسه من أجل تحقيق الأهداف العليا التي يريدها. والسؤال هنا:هل ثمة قوى أخرى يمكن أن تساعدنا في بناء هذا العالم؟ يجيب جيمس بالإيجاب. إنها الإنسانية فحسب.(٦٠)

ومما سبق نستنتج أن إمكانية الفعل والنتيجة في العالم مرهونان بالإنسان في المستقبل. وأظن أن جيمس زعم بذلك بدافع التعددية أو التجريبية الأصيلة, لأن أهم عناصر التعدد هو الإمكان, بمعنى أن العالم لم يتم تكوينه منذ الأزل, ولكنه يتم باستمرار بجهود الإنسانية. وعلى حد زعمه فإن الصانع قد ترك لنا المجال لإكمال تفاصيل الكون. ومن ثم تقبل, براجماتية جيمس, الكون وهو في حالة تشتت وتمزق وتفسخ ووحدات جزئية من المحال إدماجها في إطار كلي. ويترتب على ذلك أن من حق الإنسان أن يتعامل مع هذه الوحدات بالطريقة التي تستهويه.(٦١) وإذا كان ذلك كذلك فإن العالم, عند جيمس, يوجد عمليًا وواقعيًا في شكل من العلاقات المستمرة بين كل الأشياء الأمر الذي من شأنه يجعل العالم متحدًا ومتماسكًا. وعندئذ يتعين علينا أن نرى العالم كمتعدد.(٦٢) فضلًا عن إن تعدد العالم ونقصانه هو افتراض محتمل ولكنه في حاجة إلى إمكانية التغيير الذاتي. وهذا بدوره معناه أنه يحتاج إلى تحقيق وجودنا الإنساني. وأن يشترك العقل والواقع أو النظرية والفعل في نطاق واحد لا ينتهي.(٦٣)

وهكذا فلنتوجه إلى الواقع, وندرك تفاصيله ومعطياته المباشرة, والعمل على تغييره.(٦٤) وإثر ذلك اعتقد جيمس أنه لا يمكن تصور العالم من ناحية المطلق, إذ إن المطلق لا يمارس أفعالاً ويشعر بمعاناة. ولا يحب ولا يكره. ولا توجد لديه احتياجات وأهداف. ولا يحرز النجاح والفشل. ولا يوجد لديه أصدقاء وأعداء. وانتصارات وهزائم, فإن كل هذه المسائل متعلقة بالعالم النسبي الزمنى الذي نمارس فيه كل خبراتنا الإنسانية المتناهية ويؤثر فينا بحوادثه المتغيرة.(٦٥) ووسط هذا العالم المتغير المستمر فإن الخبرة هي البديل الذي نبحث عنه. وبها تتضح رؤية الأشياء. وتكون كل لحظة من لحظاتها تقدّم إشباعًا لرغبة معينة لنا.(٦٦) ويعني هذا أن العالم لا يخضع لوحدة عقلية ضرورية

واحدة. والإنسانية لها وظيفة وهدف تسعى إلى تحقيقه, ولهم حرية الفعل والسلوك والعمل, وقد يجمعهم علاقة واحدة في نظام واحد. ومن ثم تتعدد العلاقات الممكنة, وتتعدد النظم والأهداف. ويصير العالم متحدًا أمرًا مشروعًا وفقًا لخبرتنا اليومية. وهذا الافتراض أفضل الافتراضات, لدى جيمس.(٦٧)

وهنا يصبح العالم, لديه, نموًا لا ينقطع، وخلقًا مستمرًا إلى ما لا نهاية. وترجع إشكاليته إلى أننا نريد أن يكون أصل وجوده قد تم منذ الأزل دفعة واحدة وأن نفترض كل مادة فيه أزلية. هذه الطريقة في النظر إلى العالم هي وَهْم يشترك فيه العقلانيون وخصومهم. وهؤلاء يتوهمون بأنه ليس هناك ديمومة فاعلة حقًا، وأن المطلق سواء كان مادة أو فكر لا يمكن أن يتزمن ذلك الزمان الذي نشعر بأنه يكون نسيج حياتنا, وأن الفعل الخلاق للكثرة المادية متضمنة منذ الأزل في الجوهر الروحي. ولكن عندما نقتلع هذا الوهَمْ من جذوره ستتوحد الإنسانية حول فكرة التطور, اذ عندئذ تصير الديمومة جلية. وبالتالي لا يكون المطلق شيئًا موجودًا بصورة نهائية مغلقة. وإنما يصبح حياة مستمرة, وفعلًا, وحرية. ونخلص من ذلك إن الحياة هي حركة.(٦٨) والحركة هي انطلاقة إلى الأمام. وبناء على ذلك يكون عالم التعدد هو عالم مفتوح مرنًا وليس عالمًا مغلقًا جامدًا. كما أنه عالم الحرية لا عالم الحتمية والضرورة. فقد كان جيمس مؤمنًا بحرية الإرادة وفعاليتها، وارتبطت فكرة الحرية عنده بنظرته التعددية إلى العالم الذي لا يكف عن التغير والتشكل والتجدد بحيث تبدو الحرية نفسها بمثابة صورة من صور الجدة أو الأصالة التي تميز ذلك العالم المتكثر. والواقع أن معاني الصيرورة والتغير والجدية والمصادفة والحرية هي من المعاني المتلازمة التي لا تكاد تنفصل عن التعددية الأصيلة.(٦٩) إلا أن التعددية الأصيلة لم تنل هدف الفلاسفة أصحاب الاتجاه التجريبي أو العقلي مما أفضى بهم إلى ابدال فوضى العالم وكثرته من وقائع حسية بعدد من المفاهيم الأخلاقية والعقلية الخالصة اللامتناهية. ووصفت العالم بأنه بناء عقلي. كذلك قدمت التجريبية صورة مؤسفة عن العالم واعتباره عالمًا مضطربًا وغير منظم مقارنة بالصور

العقلية التي قدمها العقلانيون.[٧٠] فضلًا عن أن كلا الطرفين تعاملا مع العقل في العالم على أنه السلطة الحاسمة. لكنهما, في الحقيقة, في رأي جيمس, قد استعانا به وفقًا لأهوائهما وآرائهما وليس وفقًا لحكم العقل ومنطقه. فبه قضى المطلقيون على العالم الحسي, وبه حطم التجريبيون المطلق واعتباره جوهر التناقضات المنطقية, ولم يحقق كلا الطرفين هدفهما باتساق.[٧١]

عندئذ نرى بوضوح كيف تقف براحماتية جيمس في إشكالية الواحد والمتعدد. إنها تأخذ بمعيار الاختلافات العملية التي تتحقق وفقًا لهذه النظريات مما أفضى ذلك إلى إنكار كلًا من الواحدية المطلقة والتعددية المطلقة.[٧٢] ولقد أصبح الفارق واضحًا بينهما ويمكن لكل منا اختيار أحدهما وفقًا لمعتقداته. ويقول: "مَنْ يدعي إن التعددية هي مبدأ غير معقول ومناف للعقل الإنساني فلن يكون لدىّ سوى الصمت ولا أدافع عنها أكثر من ذلك. فالقضية بين أيديكم ويمكن لأيًا منكم أن يقبل بالتعددية أو ينكرها وفقًا لأفكاره ورغباته. ولكن مهما نكن على قناعة بالتعددية فإنها مجرد افتراض فحسب ومتمم للواحدية. إذ ربما يكون العالم في النهاية عالمًا مغلقًا, وربما يكون العكس ويكون عالمًا مفتوحًا. إلا أن الشيء الذي أقتنع به وأثق فيه أن العالم هو عالم متعدد مثلما نراه في خبراتنا الحسية".[٧٣]

لذا كان يأمل جيمس من القائلين بالمطلق والتجريبيين أن يكونوا صرحاء مع أنفسهم ويعترفون بأن أولى الأشياء في فلسفاتهم هي الإقرار بإمكانية الحقيقة والوصول إلى اليقين الاحتمالي.[٧٤] وعلى أية حال سواء كنا تجريبيين أو عقلانيين فإن هذا الفارق أمر شكلي. إذ إننا جزء من هذا العالم نشارك فيه ونهتم بتغييره في براجماتية جيمس.[٧٥] ويلزم من هذا أننا نستطيع التأثير في العالم وتشكيله. وأن تصوراتنا فروض أو وسائل لهذا التأثير أو التشكيل. وتعتمد براجماتيته على التجربة الوجدانية الخالصة ويقتصر عليها. وهذه هي التجريبية الراديكالية. وتبدو التجربة الوجدانية متنوعة متغيرة، فهو مذهب "تعددي" يتصور "الكون متعددًا" فيعارض الأحادية والحتمية، ويدع مستقبل العالم

معلقًا يحتمل إمكانيات عدة يتوقف تحقيقها على فعل الكائنات التي تقرر مصيره. ونخلص من هذه المقدمات إلى أن وليم جيمس يعرض البراجماتية على أنها نظرية في ماهية الحقيقة ومنهج لحسم الخلافات الفلسفية.(٧٦)

سابعًا: نتائج البحث

في ضوء ما أُثير يمكننا أن نُجمل أهم نتائج البحث على النحو التالي:-

- أنه بفضل البراجماتية يصبح العالم حقيقة مرنة غير مكتملة يمكن وصفها بالتعدد والتغير والحركة المستمرة. ومن هنا يكون لتصور العالم طابعًا زمنيًا يجعل منه فلسفة فعلية تؤمن بأن المستقبل مفتوح دائمًا, أي أن العالم ليس مكونا، بل هو في دور التكوين. بعبارة أخرى لا يرفض جيمس تلك المذاهب الواحدية التي تريد أن تفسر شتى ظواهر الكون بالرجوع إلى مبدأ ميتافيزيقى واحد، وإنما هو يرفض تلك الفلسفات المطلقة التي تقول بالثبات أو بالجواهر الثابتة لأنه يرى أننا نحيا في عالم متغير لا سبيل إلى تشبيهه بعالم المثل أو الصور المحضة التي لا تعرف التغير, أو الصيرورة, أو الزمان.(٧٧)
- يكون للمستقبل معنى مادمنا نعتقد أن إتمام العالم مرهون بإضافاتنا واسهاماتنا له. ومعنى هذا أن للإنسانية نصيب في بناء العالم الذي يوافق العقل, ويوافق نفع الإنسان, وسعادته. بناء على ذلك كان موقف چيمس من العقلانية هو النقد. والخروج من هذه المفارقة هو بالآخذ بالتعددية. والتعددية, في نظر جيمس, تتضمن الإمكان. والإمكان, أساس حرية الإرادة. والحرية, هي عين صيرورة الأنا. والفعل الحر تقدم متصل يبدأ بالإرادة. إذن تعددية جيمس لا ترى العالم نظامًا آليًا محكومًا بقوى مجاوزة. والعالم الحقيقي هو الذي يتجاوب مع حاجات الإنسان ورغباته, وفيه نستطيع أن نعمل ونؤكد هويتنا. وهذا يمضي بنا إلى أننا نحيا في عالم به مخاطرات وإحباطات. والقول بأن العالم له خطة مسبقة ويخضع لقوانين ثابتة غير مشروع عنده. فالعالم مليء بالمصادفات والإخفاقات وليس خاضعًا

للضرورة حيث إن فكرة الضرورة ناشئة من جهل الإنسان.(٧٨)

- إن براجماتية جيمس تفسح المجال أمام الفكر الجديد, وصيرورته, وتجعله يغامر ويبدع في مجال المعرفة الإنسانية. على النقيض من الاعتقاد بالواحدية فإنه يوقعنا في مفارقة حيث إنها لا تفسر لنا مشكلة نقص المعرفة ونسبيتها، ولا النقص في الطبيعة لأن الواحديين يتصورون العالم على أنه شيء كامل الصنع منذ الأزل, ولا يطرأ عليه تغيير, ولا مجال فيه لحرية الإرادة وكل شيء فيه محكوم بالضرورة ولا معنى للصدفة والإمكان. ومن ثم يرون المعرفة كاملة, ومطلقة, وصادقة بالضرورة وقد تمت منذ الأزل ولا جديد فيها. ووفقًا لذلك لا يوجد معنى للنقص في المعرفة والعالم, عندهم. بينما نرى العكس في الواقع الحسي إذ يتغير الواقع وتتغير الأشياء وتُكمل ما ينقصها في المستقبل. لذا أنكر جيمس حتمية العالم وكماله وارتأى أننا حين يُنظر إلى وقائعه نجدها متعددة ومتناهية,(٧٩) حيث إنه أقرب ما يكون إلى جمهورية يعيش فيها مواطنون أحرار يعملون جميعًا على قدم وساق بغية الوصول إلى تحسين هذا الكون. وما العالم, في النهاية, سوى منظمة اجتماعية يسود فيها التعاون بين مساهمين مختلفين قواهم محدودة ومسئولياتهم محدودة. ومن تفاعل هذه المنظمات واحتكاكها وتعاونها وتداخلها، بل ومن جهودها المشتركة وانتصاراتها المتلاحقة يأتلف هذا الكون المتعدد. وإذن فإن فلسفة جيمس التعددية تقودنا في خاتمة المطاف إلى فلسفة اجتماعية.(٨٠) إنها الفلسفة الإنسانية في أوسع معانيها. إن أفكارنا تحدد ما تكون عليه أفعالنا. وأفعالنا تحدد ماذا يكون عليه نظام العالم. وحين يكون نظام العالم متعددًا يختفي الاغتراب الوجودي منه!(٨١)
- إن الطريقة البراجماتية, عند جيمس, لا تعالج مفهوم المستقبل بالعقل والتأمل أو بالنظر إلى الخلف, وإنما بالخبرة والنظر إلى الأمام.(٨٢) فضلًا عن أنها استطاعت أن تفصل بين المناقشات الميتافيزيقية التي يصعب علينا حدها بالعقل مثل هل العالم محكوم بالقضاء والقدر أم إنه قائم على الحرية؟ وقد كان الحكم في مثل هذه

المناقشات مردود في الرجوع إلى التجربة والتحقق من النتائج العملية وآثارها المباشرة وغير المباشرة التي تترتب على الزعم بهذا ونقيضه. وإذا لم توجد فوارق عملية على الزعم بين الواحد منها والآخر فأنهما متساويان وبالتالي فإن, براجماتية جيمس, أرادت الفصل في المناقشات الميتافيزيقية العقيمة بالرجوع إلى آثارها العملية.[٨٣]

- يمكننا تمييز الواحدية عن التعددية بأنها تعبر عن صورة الكل. وعلى الضد تمثل التعددية صورة خبرتنا الإنسانية عن العالم. ويهدف جيمس من هذا الزعم الدفاع عن التعددية في مقابل التصور الأحادي. إذ حينما تتأمل هذا العالم نراه عبارة عن موجودات فردية متكثرة ومنها تؤلف فكرة معقولة وكافية عنه لا يمكنك إدراكها من خلال صورة المطلق.[٨٤] لذلك قضى جيمس على النزعة الكلاسيكية المتطرفة التي أفضت إلى إنكار احتمالية التغير واعتبرت الاعتقاد في إحداث التغير للعالم هو شئ غير حقيقي ومناقض للعقل.[٨٥]
- يلزم أن تحاكي فلسفة المستقبل حذو العلم وتضع العالم الحسي نصب أعينها. وإذا أمكن لنا أن نخطو الطريق نحو بحث الوقائع الجزئية لعالمنا ونصل لبعض من النتائج الفلسفية سواء كانت واحدية أو تعددية.[٨٦]
- العالم واقعة حية من الفوضى أو الاضطراب ما يستلزم وجود الإنسان. فنحن ضروريون للتغيير من صفحة هذا العالم، بل ربما كانت طبيعتنا البشرية نفسها قد جعلت هذا الكون المضطرب الذي لن يلقى خلاصه إلا على أيدينا نحن! ولكننا لا يمكن أن نضمن لأنفسنا النجاح مقدمًا في هذا العالم، لأننا نعيش في عالم متقلب متغير لا يقدم لنا مثل هذه الضمانات! فالكون, الذي يصفه لنا جيمس, هو كون مليء بالقلق والصراع والمخاطرة، وليس فيه موضع للثقة أو الأمن أو الاطمئنان. ولكن حياتنا مع ذلك هي معركة حقيقية، لأن انتصاراتنا هي انتصارات للعالم نفسه، وهزائمنا هى هزائم كونية. وإذا كان جيمس قد علق أهمية كبرى على إرادة

الاعتقاد فذلك لأنه قد تصور أفعالنا على أنها نقط تحول هامة في مجرى العالم نفسه، كأن العالم يتطور بتطورنا، أو كأنه يتغير فينا وبنا.[٨٧]

- الحقيقة والعالم من صنع الإنسان. ففي اللحظة التي كانت الحقيقة, في الفلسفة العقلية, مطلقة وليست فرضًا, إنما هي ضرورة قبلية ندركها في كل مسائل التفكير.[٨٨] وعليه صارت الحقيقة, عندها, متعالية وتتجاوز قيمتها على كل رغبة نفعية باعتبارها شيئًا نحيا به سواء له منفعة أو لم توجد وكانت الحقيقة, عند جيمس, نسبية باعتبارها لحظات فقيرة ونجاحات متعثرة.[٨٩] وبالتالي صار المستقبل مفتوحًا لكل فرد يحقق ذاته. وميله إلى العمل ونجاحه فيه هو جوهر وجوده. وجوهر وجوده يتمثل في إرادة الفرد وقدرته على تأدية الأفعال والممارسات العملية في حياتنا.[٩٠] وهذا يدفعنا إلى روح المغامرة ويقضي على الكسل والفشل واليأس والتواكل. وصارت الحقيقة ليست قبلية, ويمكننا الحكم عليها بعد اختبارها عمليًا, ومعرفة قيمتها الفورية التي تعود علينا من اعتقادنا فيها. ويبقى الواقع هو المحك العملي معيارًا للحقيقة. وبات العقل ليس جوهرًا قائمًا بذاته وله وجوده الخاص المستقل وإنما تحول, عند جيمس, إلى وظيفة وأداة تُساعدنا على التكيف مع الواقع وفي علاقة متصلة مع الإرادة. وأن تكون قيمة أفكاره وصدقها مرهونة بنجاحها. ومن ثم آن الآوان إلى التخلص من الأوهام الموجودة في عقولنا وأن نثق في الإرادة, وأن ندفع العقل إلى تطبيق الأفكار في الواقع ومحاولة الاستفادة منها. فلقد أصبحت الحقيقة ليست بمعزل عنا، وإنما هي أمامنا وواجبنا إنتاجها. وهذا يبين لنا أن جيمس متسق مع براجماتيته.إذ إنه أنكر النظم العقلية المغلقة والمقولات القبلية والضرورة والثبات والبعد عن الخبرة. وأخذ بالخبرة الحسية أساس معرفة العالم والعلاقات والأشياء باعتبارها قائمة بذاتها حتى ولو طرأ على علاقاتها تغير. فضلًا عن أنه أعطى للزمان قيمة واعتبره عاملًا مهمًا في الجدة والإمكان. وما لم يتحقق الآن قد يتحقق في المستقبل.[٩١]

- تتضح خطورة الموقف الذي تتخذه البراجماتية من الإيمان, وتبدو رغبتها في تسخير العقيدة لتحقيق أهدافها, فالمشكلة لديها ليست الإيمان بالله أو بدين معين, وإنما المشكلة هي ضرورة الانتظار حتى يتضح أي الأديان أقدر على أن يؤدي دورًا أحسن في المستقبل. ومن ثم زعم وليم جيمس أنه يتعين على البراجماتية تأجيل الجواب اليقيني لأننا لا ندري حتى الآن, على سبيل الجزم واليقين أي نوع من الدين سيعمل على نحو أفضل في المستقبل.(٩٢)

أخيرًا أرى إن براجماتية جيمس ما هي إلا خُطى لبناء أمريكا؛ أي رفض الصورية العقلانية والآخذ بفلسفة العمل بديلًا عنها, واعتبار كل ما هو نافع صادقًا وحقيقيًا. فضلًا عن إنها محاولة لتجاوز الصراع بين المذاهب والعقائد الأحادية إلى التعددية المعرفية والدينية والتي فيها يكون الفرد مقياسًا لصحة معتقداته. وهذا معناه تطور الزمان مما يلزم منه أن تكون الإنسانية في مسار التعدد والاختلاف. وبمقتضى ذلك يكون الاحترام المتبادل بين البشر على الرغم من خلافاتهم المعرفية والدينية دافعًا إلى تكوين عقل عام يناسب المجتمع التعددي. ولما كانت خلافاتنا انعكاسًا لكثرة تصورات الخير البشري فإن الاحترام القائم على التسامح يسمح لنا أكثر من غيره بتقدير قيمة تنوع النّعَم المتجلية على الرغم من اختلاف أنماط حياتنا.(٩٣) والسؤال إذن:

كيف تكون فلسفة المستقبل نافذة يمكن من خلالها بناء عالم عقلاني ومتعدد؟

الهوامش والملاحظات

(1) William James, Pragmatism, Longmans-Green and co, New York, 1943, PP.46-47.

(2) Ibid, P.45.

(3) Ibid, P. 47.

(٤) زكريا إبراهيم, دراسات في الفلسفة المعاصرة, مكتبة مصر, القاهرة, الطبعة الأولى, ١٩٦٨, ص ص ٣٠-٣١.

(٥) مصطفى النشار, مدخل جديد إلى الفلسفة, نيو بوك للنشر والتوزيع, القاهرة, الطبعة الأولى, ٢٠١٧, ص ١٦٨.

(٦) زكريا إبراهيم, دراسات في الفلسفة المعاصرة, ص ٣٤.

(7) William James, Pragmatism, P.45.

(8) Ibid, P.215.

(9) Ibid, P.305.

(10) Ibid, PP.215-216.

(11) Ibid, P.214.

(12) Ibid, P.218.

(١٣) زكريا إبراهيم, دراسات في الفلسفة المعاصرة, ص ٢٦.

(14) William James, Pragmatism, P.226.

(15) Ibid, P.227.

(16) Ibid, PP.224-225.

(17) Ibid, PP.223.

(18) Ibid, P.51.

(19) Ibid, P.40.

(20) Ibid, P.51.

(21) Ibid, P.53.

(٢٢)مراد وهبه, أبعاد الفكر الفلسفي في أمريكا, مجلة الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر, مصر, عدد ١٢٨, ١٩٦٧, ص ٢٠.

(23) William James, A Pluralistic Universe "Hibbert Lectures At Manchester College On The Present Situation In Philosophy", ARC Manor, The United States Of America/ United Kingdom, 2008, P.53.

(24) Ibid, PP.53-54.

(25) Ibid, P.48.

(26) William James, Pragmatism, P. 296.

(27) Ibid, PP. 300-301.

(28) William James, The will To Believe: And Other Essays In Popular Philosophy, Longmans, Green and co, New York, Eighth Edition, 1917, P.59.

(29) Ibid, P.30.

(30)William James, Pragmatism, 1943, P.282.

(*) الواحدية Monism (١) لفظ ابتدعه فولف Wolff للدلالة على المذهب الذي يرد الكون كله إلى واحد كالروح المحض أو الطبيعة المحضة. (٢) وفي الميتافيزيقا: عدم انقسام الموجود بالذات, وانفصاله عما سواه. للمزيد أنظر مراد وهبه, المعجم الفلسفي, دار قباء الحديثة, القاهرة,الطبعة الخامسة,٢٠١١, ص ٦٧٥.

(31)William James, A Pluralistic Universe, PP.19-20.

(32) Ibid, PP.31-32.

(33) Ibid, PP.128-129.

(34) Ibid, P.28.

(35)William James, A Pluralistic Universe, P.49.

(36) Ibid, P.46.

(37) Ibid, P.31.

(*) التعددية Pluralism (١) ذاع المصطلح الافرنجي في القرن التاسع عشر, وهو تصور أخلاقي وسياسي وارد في المجتمعات المكونة من أفراد وجماعات حرة في عدم الانصياع لقناعات ثقافية وأخلاقية وسياسية ودينية وفلسفية, ولكنها مع ذلك ترغب في الحياة معًا, ومن ثم تقبل قواعد تحقق هذه الرغبة.(٢) يطلق على المذهب البرجماتي الذي يتصور أن الكون متكثر فيعارض بذلك الأحادية والجبرية, ويزعم أن مستقبل العالم يحتمل إمكانيات عدة يتوقف تحقيقها على فعل الكائنات التي تقرر مصيره. في مقابل واحدية المعتقدات والقيم. للمزيد أنظر مراد وهبه, المعجم الفلسفي, ص ١٩٨.

(38) William James, A Pluralistic Universe, P.19.

(39) Ibid, P.129.

(40)William James, Pragmatism, PP.135-136.

(٤١) مراد وهبه, أبعاد الفكر الفلسفي في أمريكا, ص ص ١٩-٢٠.

(42) William James, A Pluralistic Universe, P.28.

(43) William James, Pragmatism, P.132.

(44) Ibid, P.139.
(45) William James, A Pluralistic Universe, PP.140-141.
(46) Ibid, PP.117-118.
(47) Ibid, P.91.

(٤٨) مراد وهبه, المذهب في فلسفة برجسون, دار وهدان للطباعة والنشر, مصر, الطبعة الثانية, ١٩٧٨, ص ٦٤.

(٤٩)المرجع نفسه, ص ١٠٣.

(٥٠)المرجع نفسه, ص ٨٦.

(٥١) كمال يوسف الحاج, هنري برجسون "أبو الفلسفة الحديثة", الجزء الثاني, منشورات دار مكتبة الحياة, بيروت, الطبعة الأولى, ١٩٥٥, ص ٢٦.

(٥٢) يوسف كرم, تاريخ الفلسفة الحديثة, دار المعارف, القاهرة, بدون سنة النشر, ص ص ٤٤٣-٤٤٤.

(٥٣) مراد وهبه, المذهب في فلسفة برجسون, ص ٥٥.

(54)William James, A Pluralistic Universe, PP.103-104.
(55) Ibid, PP.107-108.
(56) Ibid, P.98.
(57)William James, Pragmatism, P.142.
(58) Ibid, PP.290-291.
(59) Ibid, PP.291-292.
(60) Ibid, PP.297-298.

(٦١)مراد وهبه, أبعاد الفكر الفلسفي في أمريكا, ص ٢٠.

(62)William James, Pragmatism, P.137.
(63) William James, A Pluralistic Universe, P.132.
(64) Ibid, P.55.
(65) Ibid, P.24.
(66) Ibid, P.115.
(67) Ibid, P.35.

(٦٨) كمال يوسف الحاج, هنري برجسون, ص ص ٨٨-٩٠.

(٦٩) فؤاد كامل, أعلام الفكر الفلسفي المعاصر, دار الجيل, بيروت, الطبعة الأولى, ١٩٩٣, ص ص ١١٢-١١٣.

(70)William James, A Pluralistic Universe, P.23.
(71) Ibid, P.98.
(72)William James, Pragmatism, P.156.
(73)William James, A Pluralistic Universe, PP.131-132.
(74)William James, A Pluralistic Universe, P.52.
(75) Ibid, PP.10-11.
(٧٦) يوسف كرم, تاريخ الفلسفة الحديثة, دار المعارف, القاهرة, بدون سنة النشر, ص ص ٤١٧-٤١٨.
(٧٧) زكريا إبراهيم, الفلسفة المعاصرة, ص ٢٦.
(78)William James, A Pluralistic Universe, PP.97-98.
(79) Ibid,P.21.
(٨٠) زكريا إبراهيم, الفلسفة المعاصرة, ص ص ٥٢-٥٣.
(81)William James, A Pluralistic Universe, P.128.
(82)William James, Pragmatism, P.127.
(83) Ibid, PP.166-167.
(84) William James, A Pluralistic Universe, PP.22-23.
(85) Ibid, P.89.
(86) Ibid, P.133.
(٨٧) زكريا إبراهيم, الفلسفة المعاصرة, ص ٤٢.
(88)William James, A Pluralistic Universe, P.26.
(89) Ibid, P.102.
(90) Ibid, P.102.
(٩١) وليم جيمس, محمود زيدان, دار المعارف, القاهرة, الطبعة الأولى,, ص١٢٢.
(٩٢) حسناء عبد الله أحمد باعبود, الفلسفة البراجماتية الأمريكية" دراسة تحليلية نقدية في ضوء الرؤية الإسلامية", رسالة دكتوراة, المكتبة الوطنية, السودان, الطبعة الأولى, ٢٠١٨, ص ٣٥٩.
(٩٣) فريال حسن خليفة, تصورات العدالة في تاريخ الفلسفة, شركة مدبولي, القاهرة, ٢٠٢٠, ص٣٥٤.